صُوَرٌ من الجزيرة

- المغتربات
- جارة النبي
- هاجر
- آمنة

المغتربات

« . . . ليتنا نقدر أن الغرب ، الظافر الغالب ، يدين لهؤلاء المغتربات بأكثر ما يتمتع به من نفوذ سياسى واقتصادى ، فى أرضنا الطيبة التى اغتُصبت زماناً ، وشرقنا الذى غلب طويلا واستُبيح ! » . .

لقيتُهن هناك فى صحراء الجزيرة ، قد تخلين طائعات عن الحياة الناعمة فى أوطانهن ، وتبعن أزواجهن إلى ذاك المكان النائى الموحش ، ليهيئن لهم من دفء العش وأُنس الأسرة ، ما يعينهم على العمل الكادح والكفاح الصعب ، بين الصخور والرمال . . .

لقيتهن هناك فى الدهناء : أمريكيات وأوربيات وآسيويات ، عصريات مثقفات ، قد رضين بالعيش فى تلك الفلاة المهجورة ليمسحن بأناملهن الرقيقة العرقَ المتصبب من جباه رجالهن العاملين فى وقدة الرمضاء . . .

ورأيتهن هناك : ابتسامةً وضيئة فى وجه الصحراء الغضوب ، وأطيافاً رشيقة أنيقة وسط المهمه القفر ، ونغمة عذبة تروِّح عن الرجال الذين يعملون بين ضجيج الآلات الضخمة المارِدة ، وصفير الرياح الصرصر العاتية ، وعواء الوحوش الضالة الهائمة على حافة العمران . . .

لقد استطاعت الثروة المتدفقة من آبار الذهب الأسود ، أن تبنى للمغتربين مساكن طيبة ، حولها حدائق مزهرة غناء ، تصد عنها بعض لفح الهجير وعواصف الرمال ولطمات الرياح السافيات !

ولم يشق على شركة الزيت أن تضىء منازل رجالها بالكهرباء ، وتكيف فيها الهواء ، وتزودها « بالتليفون والراديو والفريجيدير » ، لكنها لم تكن لتستطيع — ولو ظفرت بمال قارون وعثرت على كنوز سليمان — أن تذود عن الرجال الضجر والملال والوحشة ، وأن تمس مساكنهم بتلك اللمسة اللطيفة التى تتركها الأنثى حينما مست يداها ! أو تبث فى المساكن المزودة بآلات التبريد والتسخين والإضاءة والتكييف ، روحاً من الأنس واللطف

والرقة والحنان ، كتلك التى تلقيها الزوجات والأمهات ! !

هن اللواتى يجعلن المنازل بيوتاً وسكناً ويبعثن الحياة فى ذلك الخراب اليباب ، وينبتن فى الأرض القاحلة الماحلة ، زهرات إنسانية يانعة ، تعطر الجوَّ الصحراوى بأريج الطفولة الباسمة المتفتحة للحياة !

ومن أجل هؤلاء الأطفال ، أُنشئت المدارس والملاعب فى منطقة الزيت بالصحراء ، واستطاب الآباء مرارةَ الكفاح ، واستمرءوا طعم العيش مع وحشة الاغتراب .

* * *

ومضيت ألتمس مصريًّا واحداً بين الرجال العاملين فى شركة الزيت ، فلم أجد !

وقيل لى فيما قيل : إن الجزيرة ألحت فى طلب مهندسين وأطباء وعمال من أبناء مصر ، فلم يستجب لها أحد كما استجاب آخرون : من الهند وإندونيسيا وإيران ، وسورية ولبنان وفلسطين ، وأوربا وأمريكا . .

لماذا رفض المصريون أن يستجيبوا لدعوة الجزيرة ، مع أنها تلقاهم بترحاب حار لا يظفر به أجنبى ، وتنزلهم بين أبنائها مكاناً عزيزاً تضن به على الغربيين الغرباء ؟

لسبب بسيط ، هو أن المصريات يأبين الهجرة ولو إلى قطر شقيق ، ويرفضن أن يتبعن أزواجهن ولو إلى بلاد العرب ، مهما تكن المغريات[1] !

وكنَّ أَوْلى بأن يفعلن ، لأن حياتهن هناك لا يرهقها شعور بالغربة ، فى بلاد نتكلم بلغتها ، وندين لها بالإسلام !

أليس من العجيب أن تعيش هناك غربيات أعجميات لا يعرفن حرفاً من العربية ، ولا يؤذن لهن بأن يؤدين شعائر دينهن — إذ الجزيرة تحرم بناء الكنائس ودق النواقيس ودخول القسس والرهبان — فى الوقت الذى تأبى فيه تلك الحياةَ ، مصرياتٌ يتزلن هناك بين أهلٍ وجيران ، وإخوانٍ فى الدين واللغة والقومية ؟

أليس من العجيب أن ترضى بالعيش فى الظهران ، غربية عصرية ، قد تكون ولدت فى نيويورك أو روما أو باريس ، ولا ترضى به مصرية قد تكون مولودة فى قلعة الكبش ، أو صفط تراب ، أو زاوية الناعورة ، أو دشنا وفرشوط ؟

---

(١) كتبت هذا ، سنة ١٩٥٢ ، قبل أن تلوح على أفقنا بوادر السعى إلى العمل فى الأقطار العربية الشقيقة ، إعارة أو هجرة .

كلا ، ليس فى الأمر ما يستغرب ، فكذلك كانت نساؤنا من قديم الزمان ، وأىٌّ هكذا خُلِقْنَ ، والأمر لله !

إن المصرية تأبى أن تنزح من القاهرة إلى الجيزة ، أو من الإسكندرية إلى دمنهور ، ويندر أن ترى قاهرية ترضى بالزواج من رجل يعيش فى الريف ، ولوكان من ملاك الأراضى وكبار الموظفين .

ويتعذر على شبابنا المتعلمين الذين يعملون فى الأقاليم ، أن يجدوا زوجات صالحات ، يحتملن العيش بعيداً عن أضواء العواصم ! وأعرف من فتياتنا المخطوبات من تشترط لإتمام عقد الزواج أن ينقل الخطيب إلى القاهرة . .

وتستطيع إدارة الإحصاء أن تضع بين أيدينا أرقاماً لا تكاد تُصدق ، عن طالبى النقل إلى كبريات المدن !

فهل نعجب إذا لم نجد بيننا من تتبع زوجها إلى الصحراء فى جزيرة العرب ؟ !

إنى لأذكر زوجات بعض الموظفين فى إحدى المزارع النموذجية قرب القاهرة ، فى منطقة أشبه بالجنة ، قد رفضن أن يعشن هناك فى (الفيلات) الأنيقة المضاءة بالكهرباء ، والمتصلة بالعاصمة بخطوط تليفونية مباشرة ! وآثرن جحيم المدينة على جنة الريف . .

وفى مجاهل إفريقية وآسيوية ، تعيش غربيات غريبات ، يفهمن حق الفهم دورهن فى الحياة ، ويقدرن واجبهن نحو رجالهن وأوطانهن !

فليتنا ندرك أن الغرب ، الظافر القاهر ، يدين لهؤلاء المغتربات بأكثر ما يتمتع به من نفوذ سياسى واقتصادى ، فى أرضنا الطيبة التى اغتُصِبت زماناً ، وشرقنا الذى غُلِب طويلاً واستُبيحَ ! ! . .

الظهران : ١٠ / ٢ / ١٩٥١

جارة النبى . . .

« قُلنا يانارُ كونى برداً وسَلاماً على إبراهيم » .

سعينا إلى الحرم النبوى فى جلوة الفجر ، يحدونا دعاء السماء الذى ظلت مآذن المسجد الطاهر ترسله منذ نحو ألف وأربعمائة عام ، فتسرى به الملائكة ملء الدُّنى ، وتُرَجِّعه الأطياف السارية على أجنحة من النور ، وتتجاوب به القمم والسفوح والأودية فى رنين علوى النغم ساحر الأصداء ، فإذا الكون كله تسبيحة مؤمنة وترنيمة هائمة !

وإذ بلغنا باب المسجد ، خلعنا نعالنا وسرنا خُشَّعاً نحو الروضة الشريفة ، وقد صفَا الحس وشفَّ الشعور ورقَّ القلب ، واندمجت شخوصنا المتعبدة فى ركب الأرواح المطيفة بحرم النبى ، الحائمة حوله ، نكاد نميز فيها أطياف الصحابة الأبرار من المهاجرين والأنصار !

حتى إذا قُضيت الصلاة ، انتشر القوم خارج المسجد ساعين على رزقهم يبتغون من فضل الله ، وبقيت قلةٌ من الذين انقطعوا عن الدنيا ، وآثروا على كل متاع فيها ، جوارَ الرسول الحبيب . وآخرون أرهقتهم الهموم والأحزان فلاذوا بنبيهم الكريم ، يسألون الله تعالى بحق هذا النفس الطاهر فى المكان الطاهر ، أن يرفع عنهم الكرب ويدفع السوء والبلاء . . .

وكنت قد اخترت مكاناً منفرداً فى الحرم أتأمل ، وأحاول أنْ أستحضر الذى وعيتُ من مشاهد التاريخ الإسلامى منذ عام الهجرة ، إلى أن لبى المصطفى ، عليه الصلاة والسلام ، نداء ربه ، وثوى جسده الطاهر فى هذه البقعة المباركة الباقية على الزمان ، مزاراً مقدساً للمسلمين من شتى أقطار الأرض .

ومرّ بى فى مجلسى عددٌ من النسوة يطفن بالمقصورة الكريمة ، فلم ألق إليهن بالا . حتى إذا فرغن من طوافهن جلسن غيرَ بعيد منى شاكيات داعيات ، فحاولت أن أصرف سمعى عن أصواتهن ودعواتهن كيما أفرغ لتأملاتى . لكنى ما لبثت أن سمعت صوتَ نشيج مختنق ، رجَّعته جوانب الحرم فكان له صدىً لافِت ، وجمنا له حيناً حتى صرفنا عنه قارئ من قراء « المدينة » يتلو بعض قرآن الفجر .

وأدرت رأسى ألتمس الباكية ، فألفيتها إلى جانبى : امرأة نحيلة الجسم بادية الضعف والشحوب ، تنتفض فى ألم مكبوت وتحاول عبثاً أن تخنق أنفاسها المتلاحقة . .

وأنكرتْها النسوةُ من حولها فتركنَ لها المكان ، وبقيتُ وحدى إلى جانبها أرنو إليها فى رثاء وعطف ، حتى رفعتْ نحوى وجهها الشاحب المبلل بالدموع وهتفت بى فجأة :

– ادعى لى !

قلت فى حرارة وتأثر :

– الله معك !

فأشرق وجهها لحظة ، وبدا لى حينذاك أنها ليست من أهل الجزيرة ، فسألتُها :

– غريبة أنتِ عن الديار ؟

أجابت وهى تشهق :

– وى ! غفر الله لى ، أتكون غربةٌ مع جوار النبى ؟ ولكن لى فى بلاد بعيدة فلذة كبد غالية ، وأشعر بنار الشوق تأكل قلبى ، فأفزع إلى ربى لعله يردها برداً وسلاماً . هل تحفظين ياستى كتاب الله ؟

قلت وأنا أعجب لانتقالها المفاجئ :

– أرجو ، فما الذى تبغين ؟

أجابت فى لهفة :

– تقرئين لى قصة نار إبراهيم ، فإنى أشعر كلما سمعتها براحة . .

فأدركت ماتعنى ، وتلوت عليها آيات إبراهيم من سورة الأنبياء :

« والله لأكيدَنَّ أصنامَكم بعد أن تُوَلُّوا مدبرين . فجعلهم جُذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون . قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتىً يذكرهم يُقالُ له إبراهيم . قالوا فأتوا به على أعيُنِ الناسِ لعلهم يَشهدون . قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا ياإبراهيم . قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون . فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون . ثم نُكِسُوا على رءوسهم لقد علمتَ ما هؤلاء ينطقون . قال أفتعبدون من دون اللهِ ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم . أُفٌّ لكم ولما تعبدون من دونِ اللهِ أفلا تعقلون . قالوا حرِّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يانار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم . وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين . ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين » .

صدق الله العظيم

هنالك انبسطت أساريرها ، وبان عليها الارتياح ، لكنها عادت فتجهمت وهمست تسألني في خوف وشك :

– وهل ترين أني أبلغ عند الله منزلة سيدنا إبراهيم الخليل ؟ فأبَيْتُ عليها أن تيئس من رَوْح الله ، ثم هممت بالقيام معتذرة بأني من قومي على موعد ، كي نسعى إلى « أحُد » ثم إلى « قُباء[1] » قبل أن ترتفع الشمس وتلتهب الصخور والرمال .

فتوسلتْ إليّ أن أبقى هنيهة ، ريثما تقص قصتها عليّ :

* * *

نشأتْ في بلاد المغرب الأوسط ، بدويةً حسناء ترعى الغنم . ومات أبواها وهي صبية . فكفلها أقارب لها غلاظ الأكباد . لم يكادوا يرونها تتفتح للربيع ناضجة الجسم رطبة العود ، حتى ركبهم الهمُّ واستحوذ عليهم القلق ، فهم يترصدونها نائمة صاحية ، ويتعقبونها بالليل والنهار ، يحصون عليها أنفاسها ويؤولون حركاتها وإشارتها ، ويتبعون مواقع نظراتها ومواضع خطواتها ، ويصغون إلى ما قد يَنِدُّ عنها من هذر الأحلام في غفوة النعاس أو غشية الحمى .

وسألتهم أن يرحموها بالخباء فلم يفعلوا ، إذ لم تسعف عليه بيئتهم وهم بدو من فقراء الرعاة . وهكذا استقبلت ربيع العمر في ظلّ رماح مشرعة ، تنتظر بها نظرة شاردة أو ضحكة ناعمة ، كي تمزق بدنها وتبعث به إلى القبر : أكرم مأوى للأنثى في شرائع البداة الجفاة !

ولم تكن تدري كيف تنأى عن مواطن الشبهات الظالمة ، فقد بدا أن قومها لم يكن يُرضيهم منها أيُّ حال :

إن وجمتْ ، قيل مخزونة أرهقها الانتظار ، وإن ابتسمتْ قيل عاشقة لقيتْ الحبيب !

إن مرضت قيل مجفوة أضناها الهجر ، وإن صحّت قيل راضية صفا لها الحب !

إن نامت قيل حالمة تهفو إلى لقاء طيف المحبوب ، وإن سهرت قيل مسهدة جفاها الرقاد !

إن تجملت قيل فاجرة تتهيأ للقاء ، وإن أهملت زينتها قيل ضالة رحل عنها من تهواه ! !

---

(١) قباء : قرية على بعد ميلين جنوبي « المدينة » على يسار القاصد إلى مكة . نزل بها الرسول ﷺ في هجرته التاريخية ، وبنى بها أول مسجد في الإسلام .

وأنهكت هذه الحياة أعصابها حتى أوشكت أن تصاب بخبال ، فدعوا لها ضاربى الرمل وقارئى الكف ، كى ينتزعوا منها قهراً ذلك السر الأثيم الموهوم الذى تكتمه . وما كان سرها سوى هذا الصبا الريان الذى تفتح برغمها وازدهر . .

وحين أعياهم أمرها ، زعموا أن لها عاشقاً من الجن ، فاستحضروا الرقاة وضربوا الدفوف كى يبرئوها من مس الجان ، وما كان الذى بها سوى اللمسة الساحرة من فورة الربيع وحيويته الدافقة . .

* * *

ثم كان لهذا العذاب آخر . . .

أو هكذا ظنت وظنوا . .

زوجوها من أحد شيوخ القبائل المسنين ، فأراحوا أنفسهم من لعنة الشك وأراحوا فتاتهم من محنة الترصد ، وطاب لهم ولها أن يتدوا ربيعها المسئول عن كل ما لقيتْ ولقوا ، وأن يلقوا عليه ركاماً من ثلوج الشتاء ، تُخمد جذوته المتقدة وتذهب بعبيره الفياح !

لكنها راحة لم تطل . . .

فما كادت تضع وليداً جميلاً فى العام الثانى من زواجها حتى حامت الظنون حولها من جديد ، وكانت عشيرة الزوج هى التى أساءت فيها القول ، وكأنما كرهت أن تذهب هذه الصبية الغريبة وولدها الرضيع ، بمال شيخهم الهالك . واستطاع الزوج أن يحميها من ظلم العشيرة ويرد عنها أذاها ما عاش ، فلما مات أمسكت القبيلة عنها ولدها ، وسرَّحتها إلى قومها وحيدة خائبة ، تندب زوجَها فى الأموات وولدَها فى الأحياء !

ولم يحسن قومها استقبالها وهى تعود إليهم ذليلة مطرودة ، فأقامت بينهم ما أقامت كسيرة القلب والطرف ، تقضى النهار كله عاملة كادحة ، فإذا جن الليل انتبذت من مسامر الحى مكاناً قصيًّا وانطوت على أحزانها تجترها فى شجن صامت . .

حتى وفد على الحى ذاتَ ليلة ، وافد غريب جاء من ديار بعيدة يسعى فى طريقه إلى الحجاز ، وقد كلَّت قدماه من طول السُّرى فنزل بالقوم يلتمس القرى ريثما يريح بدنه المجهد ، ثم يعود فيضرب فى الأرض ساعياً إلى بيت الله . وأمضى فى ضيافة القوم ثلاث ليال لم يكف خلالها عن التغنى بشوقه إلى زيارة الرسول وحنينه إلى الروضة الشريفة . . هناك حيث ينسى المرء همومه وأحزانه ، ويجد نفسه فى جوار النبى الحبيب عليه الصلاة والسلام .

وأخذتْها عيناه فى كل ليلة ، وهى تصغى إليه من ركنها المنزوى ، فرقَّ قلبه لهذا الربيع الحزين وذاك الحسن الذابل . ولما عرف قصتها دعاها إلى أن تلوذ بالحرم الأمين لتلقى هناك أحماها ، فاستجابت للدعاء دون تردد ، وتشبثت بالرحيل معه ضارعة إلى قومها متوسلة ، مستعينة بالله على من يصدها عن سبيل الله .

قيل لها : لكن الإسلام لا يأذن لك بالحج إلا فى صحبة رجل من محارمك .

فكادت تيئس لولا أن تقدم الرجل الغريب يطلب يدها ، وقد راقت فى عينيه وطاب له أن يتخذها تُهوّن عليه مشقة المسير ووحشة المسرى . .

ثم انصرف بها يبغيان مكة المكرمة . ومن ثمَّ إلى المدينة المنورة !

* * *

تبعت زوجها مشوقة هائمة ، تريد أن تشكو إلى الله بثَّها وحزنها وتنفض فى ساحة الحرم همومها وأوجاعها . وقد هون عليها ذلك ، كلَّ ما لقيت من عناء السفر ووعثاء الطريق ، وكلما نال منها الإعياء وأوشكت أن تتهاوى دون الغاية ، تراءت لها القبة الخضراء من بعيد ، فدبت القوة من جديد .

وبلغت غايتها وفيها رمق من حياة ، فأسندت كيانها المتداعى إلى الحرم المبارك ، فرُدَّت إليها الروح ، ورفعت رأسها إلى السماء مبتهلة داعية .

وكانت تظن أن رحلتها ذات رجعة ، وأنها سوف تئوب إلى ديارها بعد أن تقضى من الأراضى المقدسة وطراً . لكن زوجها أنبأها عقب وصولها إلى « المدينة » أن لا رجعة ولا إياب ، بل المقام فى دار الهجرة حتى أوان الرحيل إلى الدار الآخرة .

ومضى عام فى إثر عام ، وهى تغدو إلى الحرم النبوى مع مطلع الفجر ، فتقيم به نهارها وقطعةً من الليل ، ثم تأوى كارهة إلى قاعة صغيرة فى « حارة الأغوات » حيث ترقد منصرفة عن زوجها ، لا تكاد تبادله حديثاً .

لقد شعرت بغتة أن كل ما بينها وبين هذا الرجل قد انتهى منذ استقر بها المقام فى المدينة المنورة . وكانت تؤول هذا الشعور بأنها ما تزوجته إلا لكى يُؤْذَنَ لها فى المسير إلى البقاع الطاهرة ، ثم تعود إلى بلاد تُظِلُّ ولدها . أما وقد جاء بها إلى « المدينة » إلى غير عودة ، فليْدَعْها إذن إلى جوار الرسول ، فما لها فى غربتها ملاذ سواه !

لكنها فى أعماقها كانت ترى هذا الزوج مسئولا عما تعانى من جهد الشوق إلى ولدها : أو لم يزين لها الزواجَ على غير هواها ، ويَعِدها السلوَّ والنسيان ؟

أو لم يزعم لها أنه قادر على أن يبدل حياتها الحزينة بأخرى لا تذوق فيها خوفاً ولا شجناً ؟ ما بال شوقها إلى ولدها يستعر لظاه حتى ما يهدأ لها بال ولا يقر لها قرار ؟ !

ما بالها لا تكاد عينها تقع على صاحبها حتى يثور بها لاعجُ الحنين إلى ابنها النائى ، فتجد لهذا الحنين مثل لفح النار ولذع الجمر ؟

وكأنما وجدت أخيراً مَنْ تَحمل عليه إصرَ ما لقيتْ فى حياتها الشقية منذ مات أبواها ، ومَنْ تأخذه بذنب الذين اضطهدوها وسرقوا صباها ثم سرقوا ولدها ، دون أن تجرؤ على الشكوى أو الاحتجاج !

واستشعرت لذلك نوعاً من الرضى ، ووجدت فيه منفذاً لقهرها المكبوت وأشجانها الراقدة ، فراحت تسأل صاحبها عن صباها المضطهَد ، وربيعها الموءود ، وأمومتها المحرومة المعذبة !

وكان الزوج يلقى ثورتها مستخفًّا بها ساخراً بأحزانها ، فلما استمرأت طعم التمرد عليه لم يجد إلا العصا أداة لتأديبها وزجرها فكانت تهرب من الدار طولَ النهار مستجيرة بحمى الحرم الأمين ، فما تكاد تدخل من « باب جبريل » القريب من مسكنها حتى تنسى عدُوَّها ، وتستغرق فى صلواتها ودعائها ، ضارعة إلى الله أن يجمعها بولدها ، أو فليطفئ برحمته وقدرته ، هذه النار التى ترعى أحشاءها وتشوى كبدها . .

* * *

وتنفس الصبح وأنا فى مجلسى أصغى إلى حديثها المر ، حتى إذا أفرغت شكاتها ونفست عن شجونها ، أطرقتْ صامتة خاشعة ، وبدا لى أنها قد انصرفت عنى تماماً ، فألقيت عليها نظرة رحمة ، ثم قمت أخطو وئيداً فى ساحة الحرم ، رانية إلى أسراب الحمام التى تمرح هناك آمنة لا تُراع !

المدينة المنورة ١٥/٢/١٩٥١

هاجَر

« إن الصَّفَا والمروةَ مِن شعائرِ الله فمَنْ حجَّ البَيتَ أواعتَمَر فلا جُناحَ عليه أن يَطَّوفَ بهما ، ومَن تطوعَ خيراً فإن الله شاكرٌ عليم » .

صدق الله العظيم

انطلقت بنا السيارة من « جدة » مسرعة ، تريد أن تبلغ بنا « مكة » قبل أن يدركنا الليل ويلفنا الظلام . وقد أخذتنا شبه غفوة حالمة ونحن نحدق فى الجبال الصخرية التى تحف بجانبى الطريق فى شموخ ، وأشعة الغروب تلقى ظُلة رقيقة من ضوئها الشاحب على القمم الجرداء ، ثم تنساب فى رفق على السفوح العارية التى أرهقها قيظ النهار .

وأوشكت السيارة أن تتم سبعين كيلومتراً ونحن لا نرى على الأفق سوى الجبال الصم والتلال المتراكبة والأودية الضيقة المفروشة بالحصى والرمال . . ثم لاحت لنا « مكة » فجأة من بين الفجاج ، فلم نتمالك أن هتفنا من أعماق قلوبنا فى ضراعة وابتهال :

« لبيك اللهم لبيك . . »

ورددت البطاح أصداء هتافنا ، فخيل إلينا أن الوادى قد امتلأ بحشود المسلمين الأولين ، تتدفق من ناحية الشمال لتدخل « مكة » فاتحة ملبية ، وعلى رأسها « القصواء » ناقة الرسول ، تعود إلى البلد الحرام بعد أن تسللت منه خفية إلى دار الهجرة قبل ثمانى سنين ، ناجية بصاحبها ﷺ ، من كيد طواغيت المشركين ومطاردتهم الشرسة . .

* * *

وطفنا بالكعبة سبعاً ، ثم خرجنا نسعى بين الصَّفا والمروة حتى إذا أتممنا المسعى جلستُ على دَرَج المروة ، تجاهَ الوادى ، وقد طاب لى حينذاك أن أعتزل الصحبَ زاهدةً فيما شُغلوا به من حديث .

ولم أكن حتى تلك اللحظة ، أفكر فى شىء سوى هذا التاريخ الرائع الممتد الذى صنعه أميٌّ يتيم ، شهدته بطحاء مكة يرعى الغنم ، أو يخرج من القوافل أجيراً أميناً لبعض أثرياء التجار من قريش . ثم اصطفاه الله رسولاً ، فما مات حتى وطئ بقدميه أصنام الكعبة ،

وشهد بعينيه راية الإسلام تخفق على كل بقعة فى أرض العرب ، وسمع بأذنيه « بلالاً » ينادى من فوق سطح الكعبة : « الله أكبر » ، فيستجيب له بالجزيرة مئات الألوف ممن دخلوا فى دين الله أفواجاً . .

أجل ما كنت حتى تلك اللحظة التى أتممت فيها المسعى ، أفكر فى شىء سوى هذا التاريخ المجيد الذى صنعه أمىّ يتيم ، هاجر من بلده ذات مساء مع صاحب له شيخ مُسنّ ، فما مضى على هجرته ربع قرن حتى كانت دعوته تزلزل عروش الأباطرة والأكاسرة ، وتدك حصون الطغاة والجبابرة . .

غير أنى لم أكد أجلس على درَج « المروة » الصخرى وأرى الساعين يهرولون أمامى داعين مكبرين ، حتى توارت عنى مشاهد ذاك التاريخ الإسلامى ، ولم أعد ألمح سوى طيف « هاجر » وهى تهرول فى هذا الوادى باحثة عن قطرة ماء لتروى غلة طفلها الغالى « إسماعيل » :

خرجت به من خيام أبيه إبراهيم – عليه السلام – طريدة منبوذة ، كلُّ ذنبها أنها رُزِقت غلاماً ، وسيدتُها « سارة » ، امرأة إبراهيم ، عاقر عقيم ! وما كانت « هاجر » هى التى سعت إلى إبراهيم أو أغرته بالزواج منها لتهبه ولداً ، وإنما أذنت السيدة « سارة » بذلك فى لحظة يأس ، ورضيت أن تشركها جاريتها المصرية فى زوجها . لعل ذلك يروى غُلته ويهدئ من شوقه الطاغى إلى الأبناء ! ولعلها ما أذنتْ بذلك إلا وهى ترجو ألا تثمر التجربة ، فيكفَّ الزوج عن ذكرِ الولد ، ويَئد فى أعماقه أمل الأبوة المحرومة الراجية .

لكن التجربة لم تخفق ، وشاء الله أن تحمل « هاجر » فأحست السيدة العاقر لذلك مرارة كادت تفسد عليها حياتها ، وخُيل إليها أنها صغُرت فى عينى جاريتها ، فشكتْ ذلك إلى زوجها قائلة :

– ظُلمى عليك ! أنا دفعتُ جاريتى إليك فلما حملتْ صغُرتُ فى عينها ! يَقضى الربُّ بينى وبينك .

قال إبراهيم :

– هى ذى جاريتك فى يدك ، فافعلى بها ما يحسن فى عينيك .

فلم تكد سارة تظفر بهذا التفويض من زوجها ، حتى أسرفت فى إذلال هاجر إلى أن هربت منها وهامت على وجهها فى البرية ، ثم عادت بعد حين فوضعتْ فى حِجرْ إبراهيم ولدَه إسماعيل .

ولم تطق سارة على ذلك صبراً ، فازالت بإبراهيم تحضه وتغريه أن يطرد هذه الجارية وابنَها ، وهو يتردد مشفقاً . ثم استجاب لامرأته آخر الأمر ، ومضى بهاجَر منطلقاً من خيامه ، وراح يضرب فى الصحراء وهى تسير من ورائه صامتة مستسلمة ، متشبثة بوليدها الرضيع ، لا تكاد تفكر فى شىء إلا فى نجاتها به . . .

* * *

وأبعد إبراهيم فى السير حتى بلغ أطلال البيت العتيق وسط المهمَه القفر ، فوضع هناك هاجرَ وإسماعيل وترك لها جراباً فيه تمر ، وسقاءً فيه ماء . ثم انثنى ليعود من حيث جاء .

وتلفتتْ الأم حولها فأفزعها القفر الموحش لا أثر فيه لحياة ، وجرؤت على أن تخطوَ وراء السيد لتسأله مسترحمة :

– أين تمضى وتتركنا بهذا الوادى المقفر حيث لا دَيَّار ولا نافخ نار ؟

فلم يجب . .

وأعادت سؤالها مرة ، واثنتين وثلاثاً ، وهو منصرف عنها صامت لا يجيب !

ولم يبق لها من بعد ذاك إلا أن تتساءل :

– آلله أمَرَكَ بهذا ؟ !

وعندئذ أجاب إبراهيم : نعم .

ولم يزد . . .

قالت هاجر : إذن فالله لا يضيعنا . . .[1]

ورجعت إلى موضعها الأول عند أطلال البيت ، على حين مضى هو فى طريقه لا يلتفت ، إلى أن غيَّبته ثنيَّة الوادى فاستقبل البيتَ العتيق بوجهه ودعا ربه فى خشوع :

« ربَّنا إنى أسْكنتُ مِن ذُريتى بواد غيرِ ذى زَرع عندَ بيتكَ المحرَّم ، ربَّنا لِيقيموا الصَّلاة ، فاجعلْ أفئدة مِن الناس تَهوِى إليهم وارزقْهم من الثَّمرات لعلهم يَشْكرون » .

واستأنف مسيره راجعاً . . .

* * *

وخيَّم على الفلاةِ صمتٌ مرهق لم يلبث أن مزقه لهاث أُمٍّ عطشى ، وصياح رضيع جائع جفَّ النبعُ الذى يغذوه ويرويه .

---

(١) مستخلص من (التوراة) و (تاريخ مكة) للأزرق . أما القرآن الكريم فلاى يتعلق بتفصيل القصص ، تركيزاً على جوهر الموقف ومناط الاعتبار .

لقد نفد الزاد القليل الذى فى الجراب ، وكذلك نفد ما فى السقاء ، وتلاحقت صيحات الصغير وبدأ يتلوى من ظمأ وجوع ، فتركتهُ أمه وانطلقت تبحث له عن قطرة ماء . .

وحملتْها قدماها إلى جبل « الصفا » هناك ، فصعدت فوقه لتشرف من عَل على الوادى ، راجيةً أن ترى إنساناً أو أثراً لحياة ، فلما لم تر إلا الخلاء المقفر ، هبطت إلى الوادى وهرولت حتى أتت « المروةَ » فعرَّجت على السفح لعلها ترى أحداً ، ولا أحد . .

وظلت هكذا تهرول من هنا إلى هناك ، ساعية بين الصفا والمروة . مرتين ، وثلاثاً ، وخمساً ، وسبعاً ، حتى نال منها الجهد وأشرفت على الهلاك من ظمأ وإعياء . فتهالكتْ على الصخور منهوكة القوى لا تجرؤ على الدنو من صغيرها المعذب .

وإذ تناهى إليها أنينه ، وغطَّت رأسها بلفاعها كيلا ترى ولا تسمع فقد كان سماع حشرجته وهو يحتضر ، ورؤيته وهو يموت ، أقسى مما تحتمله بشريتها أو تطيقه أمومتها !

* * *

ووجمت السماء حيناً وهى تطل على المشهد الفاجع : مشهد رضيع يهلك ظمأ وأم تأبى أن تتزود منه بنظرة وداع ، بل تصد عنه وبها من اللهفة عليه مثل الجنون !

وتجهمت الصخور وهى تردد صدى صوت الأم الواهن : « لا أنظر موت الولد » مختلطاً باللهاث والأنين ، وبدا كأن شبح الموت يلقى على الوادى ظلاله الكئيبة وهو يدنو من الطريدين المعذبين ، لينتزع منهما الخفقة الأخيرة من الحياة !

لكن شعاعاً من رحمة الله لاح بغتة أمام « هاجر » فزحفت إلى حيث هداها الله ، وثمَّ . . . ألفت نبعاً يفيض ماء !

وأكبَّت عليه تغرف منه ، حتى إذا رُدَّتْ إليها الروح أحست باللبن يملأ ثديها ، فألقمتْه طفلها المشرف على الهلاك .

ودبَّت الحياةُ فيه من جديد ، وعاش ليعمرَ هذه البقعة المقفرة ببنيه وأحفاده .

واستجاب الله لدعاء إبراهيم فإذا أفئدة من الناس تهوى إلى الوادى غير ذى الزرع ، وإذا النبع – بئر زمزم – يجذب القوافل فى آثار الرعاة ، فتغدو « مكة » على مر السنين المركز الرئيسى للتجارة فى شبه الجزيرة .

عاش إسماعيل ليرفع هو وأبوه القواعد من البيت العتيق ، فيكون قبلة أنظار العابدين فى شتى أقطار الأرض ، ومهوى أفئدتهم فى كل حين ، يحجون إليه من الشرق والغرب ،

ومن الشمال والجنوب ، ليطوفوا بالبيت ويسعوا مهرولين بين « الصفا والمروة » حيث سعت « هاجر » مهرولة من زمن موغل فى القدم ، تبحث لوليدها عن قطرة ماء .

وهذه هى بئر زمزم ، ماتزال فى مكانها قريباً من قبر هاجر ، يتزاحم عليها الحجيج ليظفروا من نبعها بجرعة مباركة ، كتلك التى رَدّت الروح إلى أم هالكة ، ورضيع يحتضر !

* * *

ياله من تاريخ ! . .

إن جهاد أم فى سبيل وليدها ، قد تقبلته السماء عبادةً وقربى ، فجعلت من تلك القصة الإنسانية المؤثرة للأمومة ، سِفْراً يتلى فى « الكتاب المقدس » وجعلت من دعاء إبراهيم آية منزلة فى « القرآن الكريم » . . .

وكان مسعَى هاجر وهرولتها بين الصفا والمروة سبعة أشواط ، عزيزاً على الإسلام ، كما كان عزيزاً على الأجيال من قبله ، فدخل فى الشريعة الإسلامية شعيرة من شعائر الله فى الحج والعمرة .

وظلت قصتها ملء التاريخ الدينى ، على مر الزمان .

وماكانت « هاجر » سوى أمة طريدة مضطهدة ، نُبذت مع وليدها بالعراء فى الفلاة الموحشة ، بوادٍ غير ذى زرع .

لكنها أم !

وكانت تلك الأمومة حسبها عبادة وقرباناً ! !

مكة المكرمة : ١٩٥١/٢/٥

آمنة

« إلى التى عجز الرق عن استعباد قلبها ووأد إنسانيتها ، وإقناعها بأن لا حقَّ لها فى معاناة عواطف البشر ، تحيةً ، ورثاء . . » .

بلغنا فى رحلتنا بجزيرة العرب منطقة البحرين فى أقصى الشرق ، وبدا لى أن أزور بعض العربيات الأصيلات ، المحجبات وراء أسوار منيعة من الأعراف والتقاليد . فصحِبَتْنى صديقة كريمة إلى بعض من تعرف من سيدات القوم .

وحملتنا السيارة إلى دار صاحبة لها هناك ، فسعى خادم بين أيدينا عبر ممر طويل يُفضى إلى فناء داخلى . تُفْتَح عليه قاعةُ الاستقبال للحريم ، بعيداً عن الطريق العام .

وألفينا فى استقبالنا شابةً مليحة سمراء ، قد اتكأت على إحدى الحشايا المنسقة فوق السجاد العجمى . فنهضت لتحيتنا ، ثم جلست قريباً من الباب ، وعلى وجهِها ظل ابتسامة نحيلة متعبة .

قالت صاحبتى تقدمها إلىّ : امرأة السيد .

ثم التفتت إليها قائلة :

– ما شاء الله يا آمنة ! أراك بصحة وعافية ، وكنت لما لقيتُك آخر مرة ، عليلة تشكين .

فلاح على وجه « آمنة » ما يُشبه التساؤل ، وقالت لصاحبتى :

– كذا ترينى ياست ؟ حمداً لربى ، أنا بخير ما بقيت فى هذى الدار .

قالت لها السيدة :

– ولكن دارك غير بعيدة فيما أعلم .

فانتفضت « آمنة » وهى تقول فى انفعال غاضب :

– ما أعرف لى داراً غير هاذاكَ المكان ، وليس لى فى سواه مأرب ، ولا لى عنه منصرف ، حتى الموت !

وصمتنا لحظة ، ثم عادت صاحبتى تسأل :

– وزوجك يا آمنة ؟ .

قالت الشابة وفى نظراتها مزيجٌ من الرعب والاحتقار :

– ذاك المخلوق البغيض ؟ ! ما عاد لى به شأن . طلقنى منه سيدى ، له الشكر ولله الحمد .

وكنت أتتبع هذا الحوار وأنا أعجب لما أسمع : أو لم تقل صاحبتى إن آمنة امرأة السيد ؟ فما هذا الحديث العجيب عن دار أخرى وزوج بغيض ؟ وما مكانُها من هذا البيت إذن ؟ وفيم تشبثها به إن لم تكن ربته ؟ وكيف يُطلقها السيد من زوجها ؟ ومن يكون الزوجُ إن لم يكن السيد ؟

ولحظتْ صاحبتى ما أنا فيه من حيرة فتبسمت ضاحكة تقول :

– لا يدهشك ما سمعت . أصل الحكاية أن « آمنة » عاشت مع السيد سنين عدداً ، زوجة جارية . ثم تزوج أخيراً من إحدى حرائر « المدينة » وزوَّج آمنة من صانع أجير ، أعجمى غريب . ويبدو أن آمنة لم ترض عن هذا الزواج ، فعادتْ إلى بيت سيدها ، وهذه هى تقول إنها لا تبغى عنه حِوَلا .

رددت آمنة فى إصرار :

– هو ما سمعت : لن أتحول عن هذى الدار إلا إلى القبر . لقد أخرجونى مرة كرْهاً ، ولن يخرجونى منها ثانية وفىَّ نَفَس ! أعرف أنى جارية ، أمةٌ . مُسْتَعْبدة ، ليس لى أن أرغمهم على بقائى هنا ، لكنى أعرف أيضاً أنى لن أطيق الخروج ، ولن أُرغَم عليه حيَّة ، فليقتلونى إذا شاءوا ، أو . . . !

وبترت حديثها بغتة ، إذ دخلت السيدة ، فى تلك اللحظة لتحيى ضيفتها وانكمشت « آمنة » فى مكانها تلقى على السيدة وعلينا نظرات طويلة ، بدون أن تنبس ببنت شفة .

ونظرتُ أنا إلى السيدة : عروس فى ريعان الصبا ، رقيقة ناعمة ، أنيقة معطرة ، تميس فى دلال وزهو ، وقد رشَقت زهرتين فى شعرها الفاحم المتموج ، وارتدت ثوباً من « الدانتلا » البيضاء ، وازَّينتْ كأنها تتهيأ لحلوة العرس !

وجىء لنا بالشاى والفاكهة فأصبنا منهما ما اشتهينا ، ودار بيننا حديث هين عن دنيا النساء .

وعلمتُ أنها من بنات « المدينة » وقد أمضت فيها طفولتها وصباها ، لم تخرج منها قط إلا مرة واحدة منذ ستة أشهر ، يوم جاء زوجها فحملها بالطائرة إلى ساحل الخليج .

ولما سألتها إن كانت أشفقت من ركوب الطائرة ؟ أجابت فى مرح :

– هبينى أشفقتُ ، فماذا بالله كنت صانعة ؟ إن الرحلة من المدينة إلى مكة على ظهور الإبل ، تستغرق عشرة أيام ، فما بالك بالرحلة إلى نجد فالأحساء ؟ هل ترينها نزهة طيبة لعروس لم تبرح « المدينة » قط ؟

فضحكنا جميعاً إلا آمنة ! قالت وهى تعبث بخيوط لفاعها :

– أما أنا فما استطعتُ . سألنى سيدى أن أصحبه إلى المدينة يومَ طار إليها ليأتى بالسيدة العروس ، فرجوته أن يعفينى من هذه الرحلة ، إذ أنى أخاف ركوبَ الجو . . .

وصمتَتْ بعد ذاك فلم تقل شيئاً ، حتى قامت السيدة لبعض شأنها فاستطردتْ « آمنة » قائلة وهى تنظر إلىَّ :

– تالله ياستى ما كان بى من خوف ، وإنما ضعفتُ فكرهتُ أن أشهد بعينى جلوة العروس .

فسألتها صاحبتى :

– وأى شىء فى ذلك يا آمنة ؟ قسمة ونصيب ، وقَدَرٌ يجرى عليك وعلى مثيلاتك ، أفما كنت تتوقعين أن تدخل هذه الدارَ سواك ؟

أجابت فى بطء :

– أجل توقعتُ ذلك . . وتوقعتُ أن يلفظنى هذا المكان على غير رغبتى وهواى ! ويالى من حمقاء ! أقول رغبتى وهواى ، وإنى لأعلم أن ليس لى ولمثيلاتى حق الرغبة والهوى ! ! لكنه الضعف ، فاغفرا لى . .

وقلت وأنا أحدق فى عينيها :

– لا حاجة بك يا آمنة إلى الاستغفار ، فما أثمتِ ولا أذنبتِ . إنى أفهمك يا أختِ ، كما أفهم نفسى .

فوجمت لحظة كأنها لا تصدق أذنيها ، على حين مضيت أقول :

– ولم لا يا آمنة ؟ أليس لك عواطفُ أنثى وطبيعة بشر ؟

أو لم تلدك أمك مخلوقة سويةً من الفصيلة الآدمية التى ننتمى إليها ؟

فتهلل وجهها غبطة ، وامتلأت عيناها بالدموع ، لكن وجومها عاودها بعد قليل فتنهدت قائلة :

– لست واحسرتاه أعرف أبوى ، غير أنى لا أفتأ أتمثلنى وليدةً فى حضن أم ! وكلما

رأيتُ طفلاً يُسلم نفسَه إلى صدر أمه ويغفو هانئاً بين ذراعيها ، هاجت شجونى وقلت لنفسى : « كذلك كنت من قبل ! » ثم يشُدُّنى واقعى فأرانى ولا أمَّ لى ! نسج الزمان بينى وبينها حجباً كثيفة لا ينفذ منها شعاع ولا يبدو من ورائها شىء .

وأمسكتْ عن الكلام ريثما دخلت السيدة وأخذتْ مكانها بيننا فاستأنفت « آمنة » حديثها قائلة لى :

– سمعتك ياست تتحدثين عن رغبتك فى زيارة أحياء البلدة . لو شئت لأذنت لى فى صحبتك الآن ، ولن تستغرق رحلتنا سوى ساعة أو بعض ساعة .

فأدركتُ على الفور أنها تريد أن تنطلق معى خارج الدار ، لتفضى إلىّ بهمومها .

ولم أتردد ، بل استأذنت مضيفتى وصاحبتى ، وخرجتُ مع آمنة .

وتركت لها أن توجه سائق السيارة إلى حيث تبغى ، فانطلقت بنا إلى الخلاء ، على حافة الصحراء .

وقادتنى إلى مكان منعزل بين كثبان الرمال وراء جبل الظهران ، ثم راحت تكمل رواية المأساة :

* * *

لم تعرف عن نشأتها الأولى سوى ذكرى غامضة لطفلة غريرة لاهية ، ضلَّت طريقها إلى أمها فى زحام كبير لا تدرى اليومَ إن كان زحمةَ سوق أو احتفالا بعيد . وألفَتْ نفسها بعد أيام تعبُر البحر على ظهر سفينة كبيرة ، ثم تُسلم إلى رجل غريب يمضى بها على راحلته فى سفرة عبر الصحراء ، استغرقت نحو أسبوعين قبل أن تلقى بها فى « مدينة الرسول » لتعيش هناك أعواماً ، وتتلقى الدروس الأولى فى مدرسة الرق وسوق العبيد ! !

ولم تكن الدروس فى مبدأ الأمر شاقة ولا مرهقة ، فقد اكتفى السادة من الوليدة بأن تلاعب صبيّة الدار ، وأن تلازمهم كظلهم أقاموا فى البيت أو انطلقوا إلى الملاعب . وكان طعم الحياة هكذا سائغاً مقبولاً ، فإن السادة الصغار لم يكونوا يجدون حرجاً فى أن تشاركهم اللعب ، أو يرون فيها غيرَ رفيقة صباً وزميلة ملعب . حتى شبت وشبوا ، فإذا بها تنزع من بينهم . وتُدْفع إلى قوم غرباء ، يرحلون بها من جديد عبر البيد والقفار . . .

وعبثاً حاولتْ أن تبقى مع من حسبتهم قومَها ، وعبثاً حاول أترابها أن يحملوا أهلهم على الإبقاء عليها ، فقد بدا كأن الأمر مقرر لا يحتمل مناقشة أو رجاء ! ولما حانت ساعة الرحيل تمهلت الصبية عند باب الدار تريد أن تملأ عينيها من منزل صباها ورفاق حداثتها ، فحالت

الدموع بينها وبين ما تريد . هنالك اندفع فتى من الرفاق يهتف بها ألا تحزن ، فإنه ماض معها إلى حيثُ يُسار بها !

وأشرقت أساريرها بعد تجهم ، على حين مضى الصبى يستأذن خالته فى السفر — وكانت أمه قد ماتت قبل عام ، وجاءت أختها فشغلت مكانها من الدار .

ولم تكد الخالة تسمع حديثه عن رغبته فى مرافقة الوليدة حتى قهقهت ضاحكة ، ثم تطوعت فألقت عليها درساً فى الفارق الرهيب بين السادة والعبيد .

وكانت تلك هى المرة الأولى التى تسمع فيها الفتاة أن من البشر ما يباع ويشرى ، دون أن يكون له من أمره شىء ، أى شىء !

وأدركت أنها من هذا الجنس المنبوذ الذى لا أهل له ، ولا وطن ، ولا أمس ، ولا يوم ، ولا غد . .

وعراها وجوم ذاهل ، فاستسلمت لما يُراد بها فى ذلة ، واستقبلت طريقها المجهول دون أن تلقى كلمة وداع للسيد الصغير الذى أعجزه أن يحميها من مصيرها المحتوم ، فانثنى يبكى لها ، وعليها . . .

وأعفاها ذهولها المباغت من وطأة الإحساس بالمحنة ، أو لعل وضعها الأليم قد ألغى حقها فى مثل هذا الإحساس .

* * *

حتى إذا عاودها وعيُها بعد أيام ، تلفتت وراءها تلتمس أطلال عالمها الماضى ، فلم تجد سوى الصحراء الممتدة إلى غير مدى : غامضة كئيبة ، موحشة جرداء . .

وعادت تنظر أمامها متسائلة عن المصير المنتظر ، فلم تجد سوى المتاهة الضالة العمياء !

وتناهى إليها فى تلك اللحظة ، صوتُ حادى القافلة يَعِد الإبلَ الرِّى والراحةَ بعد الرحلة المجهدة ، فطاب لها أن تبكى . لكن نظرة صارمة من وجه المشترى الغريب ، أمسكت الدموع فى مقلتيها .

وتمنت آنذاك لو أنها ناقة فى القطيع ! إذن لوجدتْ إلى جانبها من يحدوها فى رفق ، ويغنى لها فى حنان ، ويَعِدُها الراحة والظلَّ والرى . . .

وهنا لم تقو « آمنة » على المضى فى الحديث ، فتركتُها تبكى . حتى إذا أراحها البكاء استأنفت الكلام قائلة :

« ظلت القافلة تضرب فى البيداء أياماً ولياليَ حتى أشرفت على إحدى القرى ، وآن لنا أن نحط الرحال .

وقادنى الغريب إلى دار رحبة ، حيث أسلمنى إلى سيد كهل هناك ، فتفرس السيد فى وجهى حيناً ، ثم أسلمنى بدوره إلى القائمة على شئون الدار .

وبدأتُ عهداً جديداً ، شتان ما بينه وبين العهد الذى كان .

بدت لى الدار موحشة خراباً على الرغم من ضجيج النسوة اللواتى كن يملأنها . لأنى افتقدت فيها الصبية والأطفال ، وألفيتنى أعيش وسط جمع متناكر من النساء !

كن أربعاً ، متفاوتات السن ، مختلفات السحنة واللون ، لكنهن متماثلات فى الزى والمظهر والمستوى ، وقد حسبتهن زوجات السيد ، لكنى ما لبثت أن عرفت أنهن جميعاً من الإماء ، جاء بهن السيد واحدة بعد أخرى ، يرجو أن تلد له إحداهن ولداً ، فلم يحقق الله الرجاء .

وكانت هناك خامسة ، سبقتهن جميعاً إلى بيت السيد ، ثم تقدم بها العمر فتُركت مكانها فى الحريم ، وتفرغت لخدمة الدار ، يعاونها جمعٌ من العبيد .

وإلى هذه الأمة الكهلة ، ترك السيد أمرى ، فقامت بمهمة إعدادى للمحل الذى ينتظرنى بين الجوارى الأربع .

ولم يستغرق هذا الإعداد سوى عام واحد ، ألفيتنى بعده أنفرد بغرفة خاصة إلى جانب الغرف الأربع ، وأحظى من دون الزميلات بأوفر نصيب من عناية السيد واهتمامه !

واستسلمت لحياتى الجديدة ، وقد أرضانى أن أكون موضع الغيرة والحسد ، فما عهدتْ الجوارى من سيدهن مثل تلك المعاملة الرقيقة التى أوثرتُ بها :

كنت إذا شعرت بوعكة ، حملنى السيدُ بين ذراعيه إلى فراشى وسهر على رعايتى ، يسقينى الدواء ، ويملأ غرفتى بأطيب المأكولات .

وكان إذا سافر ، عاد إلىَّ بادى اللهفة ، وملءُ يديه غالى الهدايا من ثياب وحُلى وطيب .

وكاد هذا التدليل لينسينى أنى أمَة ، لولا بقية من المرارة كنت أشعر بها فى فمى كلما ذكرتُ اللحظة الرهيبة التى ودَعت فيها صباى الخلِىّ ، ولُقِّنت الدرس الأول عن محنة الرق . .

أجل ، كدتُ لأنسى . . لكن الزمان لم يسمح لمثلى بذاك .

سافر السيد يوماً إلى الشام حيث غاب أشهراً ثلاثة أرهقنى فيها انتظاره ، فتشاغلت بتصوُّر لهفته علىَّ ، حين يثوب من سفره مثقلا بشوقه ، وهداياه .

وقد آب من سفره . . .

وكانت هديته الواحدة إلينا جميعاً ، أمَة جديدة أنزلها المنزلَ الأول الذى كان لى ، وادخرَ لها ماكان يؤثرنى به من رعاية وتدليل !

وانزويت فى الدار مقهورةً أحاول أن أستسلم ، فما كان من حقى أن أثور أو أحتج ، أو أغضب ، أو أتألم !

حاولت أن أحتمل إذلال المحظية الجديدة وشماتة الأربع القديمات ، وأن أصغى إلى نصح صديقتى الأمة العجوز التى حرصتْ على أن تميت حسّى رحمة بى ، فما يجدى الألم فيما لا يدلنا فيه ولا طاقة لنا على تغييره !

أجل حاولت ، وسهرتُ الليالى فى كفاح أليم غايته أن أخنق بشريتى وأعطل مشاعرى ، حتى أفلحت فى أن أهيل فوق قلبى وروحى أكواماً من رماد المداراة والتصبر والاحتمال .

لكن هذه الأكوام انهارتْ بغتة ذات ليلة ، حينما رأت السيد فى غرفتى التى هجرها نصف عام !

وكان بيننا موقف أليم ، عنيف مثير : أصرَّ على أن أبقى حيث كنت ، كما فعلتْ زميلاتٌ لى من قبل . وأصررتُ على أن يبيعنى ليعفينى من العيش فى ذياك الجحيم .

قال مهدداً :

– لو ظللتِ على عنادك ، بِعتُك لبعضِ الرعاة الأجلاف .

فهتفت به متوسلة :

– افعل ! افعل بالله . . إن العيشة الجافية الغليظة الخشنة فى مضارب البدو ، أجمل فى عينى من البقاء فى هذه الدار الرحبة ، رافلة فى حلل من حرير !

فاشترط لكى يفعل ، أن أكون له كما كنت من قبل : الأمة المطيعة الوديعة ، ريثما يختار لى من يشترينى ويدفع الثمن .

* * *

وجاء المشترى ، وكان شابًّا مهذباً من رجال الحكومة ، مرَّ بنا فى رحلة له إلى نجد ، وكنت أظن أن موقف الوداع هذه المرة أهونُ من سابقتها ، ولذلك عجبت حين شعرت

بشجن عميق يملأ نفسى ، لما قبلتُ يدَ سيدى للمرة الأخيرة ، وحييتُ صديقتى الأمَة العجوز ، ورفيقاتى اللواتى أحطن بى مودعاتٍ داعيات .

ولم أطق أن أطيل النظر إلى غرفتى التى تلقتْنى صبيةً غريرة ، وأخرجتْنى إلى الدنيا بعد ست سنين ، شابة قد شربت الكأس حتى الثمالة ، وبلت عيشة النساء ، واكتوت بنار الهجر والغيرة والقهر .

وذكرتنى رحلتى إلى « نجد » برحلتى الأولى من المدينة ، فلبثت أيام السفر صامتة حزينة ، وأشهد أن سيدى الجديد كان رفيقاً بى طَوال الطريق ، لم يضق بوجومى وانقباضى ، بل تركنى أجتر أحزانى فى هدوء !

حتى حططنا الرحال فى « الأحساء » فأدهشنى ألا أجد فى الدار امرأة سواى .

واتخذنى سيدى صاحبةً له ، وزوجة . وربة بيت . فتفتح له قلبى المغلق ، وذقتُ لأول مرة طعم الحب ، واستمرأت حلاوة هذا الرق الجديد ، فانيةً فى السيد الحبيب ، وامتد بى هذا الحلم الهنىء حتى أتم سبع سنين . . .

ثم كانت اليقظة الفاجعة !

أنكر الناس على رُجلى أن يقنع بأمَةٍ عقيم ، وزيّنوا له أن يأتى بأخرى قد تُنبت البذرة التى عجز كيانى المجدِب عن إنباتها .

وكان لكلام الناس فى أذن سيدى وقع السحر ، فطار إلى « المدينة » وعاد بعروس من الحرائر ، حملت له البذرة المشتهاة ، ولم يهن عليه أن يبيعنى ، فأخرجنى إلى دار قريبة ، زوجةً لصانع أجير .

وحاولتُ هذه المرة أيضاً أن أستسلم لِقدرى ، لولا هذا القلب الذى يخفق بين ضلوعى ، متشبثاً بالدار التى أظلتْنى سبع سنوات ، ومتعلقاً بالرجل الذى كان لى السيدَ والأب والأخ والزوجَ والحبيب !

قال لى سيدى : صبراً يا آمنة ، فقد تألفين العيش مع زوجك على مر الأيام .

لكن الأيام مرَّت والشهور ، وأنا أزداد نفوراً من هذا المخلوق ، واشمئزازاً ومقتاً .

هربت منه ثلاث مرات ، فكان سيدى يردنى إليه فى كل مرة ، ويوصينى بمزيد من الصبر والاحتمال .

حتى غُلب الصبرُ ونفد الاحتمال ، فأبيتُ على الزوج الكريه أن يمسنى . ولما حاول أن يُخضعنى بالقوة ، عدوتُ هاربةً فى جوف الليل ، ولذت بدارى الأولى ضارعةً إلى السيدة

أن تدعَنى أعيش لها أمةً خادمة منبوذة ، أو فلتأمر السيدَ بانتزاع روحى من جسدى إذا شاءتْ ألا أبقى تحت سقف هذا البيت .

واستجابوا لى ، فكان الطلاق والخلاص . وتُركتُ حيثُ أريد ، مكتفيةً بأن أسمع صوت سيدى ، وأرى وجهه ولو من بعيد . . .

وذاك حسبى من دنياى . .

* * *

قلت لآمنة ونحن عائدتان إلى الدار :

– ترين يا آمنة ، لو وهبك السيد حريتك . . .

فلم تدعنى أكمل العبارة ، بل قاطعتنى فى مرارة :

– وماذا أفعل بهذه الحرية ؟ أى مكان لى على هذه الأرض إذا لفظتنى الدارُ التى كانتْ لى يوماً جنة الحب ؟ ما انتفاعى بحياتى كلها ، وقلبى مصفَّد بأغلال رقِّه وهواه ؟

ثم صمتت ، حتى إذا اقتربنا من البيت أكبَّتْ على يدى تقبلها وهى تهمس :

– شكراً ياستى ، ألف شكر ! كنت كريمة إذ رأيت فينا معشر الإماء ، مخلوقات بشرية ذات قلوب ، وأصغيت إلى واحدة عجز الرق عن تعطيل حواسها وخنق عواطفها وإقناعها بأن لا حق لها فى الحس أو التألم ، أو الحب ، أو البغض .

وغابت « آمنة » عن عينى ، فلم أرها حتى هممت بمغادرة الدار ، وإذ ذاك لمحتها تخطو نحونا شاحبة متداعيةً ، ثم تقف بباب العربة لتقول :

– فى أمان الله . . .

الخبر : جزيرة العرب ١٠/٢/١٩٥١ .